الفصل الخامس والعشرون

انتقام ثلث نساء

ولما خرجت املي افتتحت البرنسس غالتزن الكلام قائلة : —

— اظن اننا كلتينا صديقتا القائد غودارد . واقول لكِ اني سأحضر الاجتماع المزمع ان ينعقد هذه الليلة . ولا ريب في انهُ سيكون مشهداً مزعجاً لكِ . لكننا سنغتنم فيهِ متعة الابتهاج بثبرئة صديقنا

— يسرني انكِ تعرفينهُ . وعندي ان غودارد عنوان كل فضلٍ وكرامةٍ . ولقد قُدِّر لي واإسفاهُ أن اكون سبباً لاصابتهِ باعظم ضرر

— اراكِ تبالغين في ذلك

— نعم اني لم اتعمدهُ ولكن النتيجة واحدة . ومن الغريب اني صبرت على حمل مصيبتي هذا الوقت الطويل كما ولم ارزح تحت ثقلها الاَّ في تلك الدقيقة كما تعلمين . وفيما كنت عازمة على التصريح بانني انا التي اعطتهُ الورقة أُرتج عليَّ وخانني الكلام وغبت عن الصواب . ولست بناسية ماعشت هول تلك الساعة . فقد كان في امكاني ان أُبرئ ساحة غودارد بكلمة . وقد بذلت في ذلك غاية جهدي فذهب اجتهادي كلهُ باطلاً

— عندي انهُ خيرٌ لكِ ايها السيدة ان لاتحضري هذا الاجتماع . ولكِ فيهِ اصدقاء ينوبون عنكِ ويكفونكِ تحمل آلام مبرّحة

— لا بل يجب عليَّ الحضور لداعٍ لا يمكن غضُّ النظر عنهُ . وذلك ليس لاجل تبرئة صديقي القديم — اذ لهُ من ينوب عني في هذا الامر كما ذكرت — بل للحاماة عمن لايجد محامياً ولا مدافعاً — عمن يكون وحيداً في حالة تحرك عواطفي لمساعدته — وهو زوجي !

— وهل يمكنك الدفاع عنهُ ؟ فلم يبقَ زوجكِ لانكِ طالق

— انهُ ابو ابنتي . فايُّ طلاقٍ شرعيٍّ يمنع مساعدتي لهُ ؟ لعلكِ ترمينني بضعف القلب ولكن هذا ما أُراهُ موافقاً لي ولستُ احول عما طبعتُ عليهِ من الشفقة والحنو

— لقد اخطأتِ مرادي ولعلكِ تدركينهُ اذا اخبرتك بانني انا الشيطانة الجميلة

— الشيطانة الجميلة !

قالت السيدة ارلنفورد هذا بدهشة انهضتها على قدميها . فقالت البرنسس غالتزن : —

— هل راعكِ هذا ؟

— نعم راعني قليلاً لاني لم استعدَّ لمقابلة تلك — الشهيرة

— اذاً لو عرفتِ من انا لم تهتمي بمقابلتي

— نعم لو عرفتُ لابيتُ الاجتماع بحاملة هذا الاسم — الشيطانة الجميلة — مخافة ان يفضي بنا اجتماعنا الى مالا يرضينا كلينا لاني لستُ في شيء من آرائك. ومع هذا كلهِ اعترف لكِ باني رأيتكِ مختلفين كثيراً عما توقعتهُ فيكِ

— اشكر لك هذا الاستدراك اللطيف . فقد صرَّحتِ بانهُ لاشيء في ظواهري يسلبني حق نظر الناس اليَّ بعين الاحترام — ولست بمنكرةٍ صلاحكِ وشرف عواطفك ولكنكِ قليلة الرفق ببنات جنسكِ . فلستُ ادري ماذا حملكِ على اساءة الظن في من لاتعرفين عنها شيئاً

— لا اعرف شيئاً ؟ — فقد سمعتُ —

— سمعتِ ؟ ولكن مرادي انكِ لم تعرفي وهذا يختلف عن السماع

— عفواً ولكن لا تنسي أن تلومي نفسكِ على ما يحدثهُ اسمك من التأثير في آذان السامعين .فمن ليس لها زوج —

— ان كان احترام المرأة مقصوراً على كونها ذات بعلٍ فانا حرية باكبر نصيبٍ منهُ . وفي عزمي ان أطلعكِ على قصتي تسركِ الى الغاية فارعيني سمعكِ

فاظهرت السيدة الس علامات الإصغاء واخذت البرنس غالتزين تقصُّ عليها ما يأتي: —

— " ان والدتي ماتت وانا بعد طفلة صغيرة . فعشت مع أبي في قصرنا في لادوكا لا ثالث لنا سوى فتاة صغيرة جُعلت خادمةً لي ولكني اتخذتها رفيقةً وصديقةً . ففي احد الايام خرجت بي للتنزُّه واطالت مشقة المسير حتى ابتعدنا كثيراً عن قصرنا وأوغلنا في الحراج المجاورة . وفيما نحن عازمتان على الرجوع سمعنا صوتاً بين الادغال انذرنا بوجود وحش كبير مفترس . ولم يلبث ان طلع علينا من الغاب دبٌّ هائل . فلما رأيناهُ مقبلاً نحونا التصقنا احدانا بالاخرى واستحوذ علينا خوف لم يغادر فينا شيئاً من الرشاد . ولكن لحسن حظنا لم نُبطئ أن سمعنا صوت بندقية على مقربة منا . ورأينا الدبَّ مجندلاً بدمائهِ . ثم خرج من الغابة رجلٌ يهنئنا بالنجاة ويعتذر عما نالنا بسببهِ من الخوف والذعر . وسار في حمايتنا الى القصر فاكرم ابي ملقاهُ ولاسيما حينما بلغهُ انهُ من اسرةٍ كريمة ذات وجاهةٍ ومكانةٍ . وكان هذا الرجل انكليزياً وقد جاء روسيا للصيد . واذ كان نازلاً في جوارنا أخذ يتردد علينا يوماً بعد يوم حتى رأيتُ نفسي تعلقت بمحبتهِ . اما أخي الذي كان يكره هذا الانكليزي كرهاً

طيميًّا فكان قد تزوج تلك الفتاة — رفيقتي وصديقتي — وذهب بها الى بطرس برج حيث دُعي للانتظام في سلك الحرس السري . فلما اصبحنا وحدنا لم نكذّب أن افتتحنا مثال اخي فاقترنّا سرًّا خوفًا من ابي الذي كان حريصًا جدًّا على شرف اصله الغالتزي . وفي الشتاء انتقلنا جميعًا الى بطرس برج

" فلما رأى اخي ان هذا الانكليزي باقٍ معنا اوجس خوف العاقبة وعزم على طرده من بطرس برج واخذ ينتهز الفرصة لخاصمته حتى سنحت لهُ أحد الامساء في النادي . فحدث بينهما خصام شديد فحقّر اخي زوجي كثيرًا وامتهنهُ امتهانًا لا يصبر عليهِ أحطّ الناس قدرًا وادناهم شرفًا ودعاهُ الى مبارزتهِ وضرب لهُ اجلاً لذلك . لكنّ زوجي بعد خروجه من النادي سعى في ما اوجب القبض على اخي اذ لا يصعب في بلادنا الشقيّة سلب الانسان حريتهُ بل حياتهُ لوقوع اقلّ تهمةٍ عليهِ !

" فتصوّري — ما استطعت التصوّر — شقاء حالي وكم سجمتُ من الدموع السخية عندما بلغني هذا النبأ المشؤوم ولاسيما إذ تحققتُ انّ اخي أخذ بكيدة زوجي ولم أعد انظرهُ فيما بعد لانهُ مات ! لأن المأخوذ في روسيا بذنبٍ سياسي وان لم تقم الادلة الكافية على جريمتهِ لا يتعذّر اغتيالهُ بطريقةٍ أخرى . ومن ذلك العهد توجهت افكاري نحو غرضٍ واحدٍ — الانتقام

" اما زوجي فنُفي من روسيا وشاع ان اللصوص هاجموا مركبتهُ على التخوم فكسروها وقتلوهُ وحينئذٍ التمستُ لنفسي تسلية عن هذه المكاره وخضت بحر السياسة الطامي ووقفت على خدمة البرنس سكولوف باقي ايامي . وبالاختصار صرتُ " الشيطانة الجميلة " . وذلك ما حلّق بهِ طائر شهرتي واوقع في قلوب الكثيرين خوفي وخشيتي . لكني والحق يشهد بقيت مع انهماكي بالسياسة منصرفة نحو اصطناع المعروف واغاثة الملهوف وتعزية الحزين وتفريج كرب المتضايقين . ولا تسألي كم من حياةٍ انتُشلت من وهاد القنوط على يدي ووقيت الارتطام بصخور اليأس الابدي . وفي إبّان متاعبي واضطراباتي اجتمعتُ بالقائد غودارد . وقد سرني اني كُفيت تبعة الجناية ولم تُلطخ يداي بدم زوجي "

فلما فرغت من حديثها نهضت السيدة ارلنفورد وقالت بلسان السآمة والضجر : —

— أراكِ اكرهتني على الاصغاء الى حديث لا يهمني البتة ولكنهُ مكدّر لك فقط

— ستعدلين عما قليلٍ عن هذا الرأي . فقد اتخذت هذه الحادثة مثالاً يناسب موضوع بحثنا وشاهدًا على قولي انهُ خيرٌ لكِ ان لا يكون لتعلّق المرأة بزوجٍ دخلٌ في احترام الناس

لها لانك لم تكوني قطُّ ذات بعل ! بل انت لنكد الطالع أمٌّ ولدٍ بزواجٍ غير شرعيّ !

— انا ! كيف تجسرين —

— اسمعي فأُخبركِ كيف أجسر . ان الرجل الذي سبَّب قتل اخي وقريبتهِ الحامل — الرجل الذي اتصيَّدهُ من مكان الى آخر تصيد الضواري الجائعة باقٍ حيًّا ! هو الرجل الذي تظنينهُ زوجك وهو بالحقيقة زوجي !

— ويلاهُ ! اكذب ! لا يمكن ان يكون صحيحاً !

— اعلمي ان الرجل الذي جرَّدني من اسمي وشرفي ومكانتي واكسبني شهرةً ينقبض مني لاجلها سيداتٌ نظيرك ويعرضن عني بوجوهٍ باسرةٍ لا يبرح حيًّا وهو اللورد ارلنفورد المدعو قبلاً جون فاين

— انكِ تقولين هذا تشفياً وانتقاماً لاني غظتك بكلامي مع اني لم اتعمَّد ذلكَ . فاجثو الآن امامك وانضرَّع اليكِ ملتمسةً الوقوف على الحقيقة . فهل تُقسمين لي ان ما تقولينهُ صحيح ؟

— أُقسم لكِ انهُ صحيح وسأُبينهُ بالادلة الكافية

ثم دخلت املي دشتون فوجدت السيدة ارلنفورد مغشيًّا عليها عند قدمي البرنس غالتزن وبعد نصف ساعة رجعت البرنس غالتزن الى منزلها فوجدت البرنس سكولوف جالساً ينتظر قدومها بفروغ صبر فلما رآها نهض لاستقبالها وقال : —

— قد جئت لاطلاعك على عراقيل جديدة عرضت لنا ولم يبلغك خبرها بعد — ما هي ؟

— ان مقام اللورد ارلنفورد تغيَّر من حيث علاقتهُ بزوجتهِ تغيُّرًا مهمًّا — لا اظن .

— بلغني ان السر راغبة في ان تنسى الماضي وتعفو عما حدث وترجع الى زوجها

فاجابتهُ باسمةً : —

— لست مصيباً ايها البرنس فيما نقلتهُ فالسيدة السر لا ترضى ان تنسى وتعفو وليست في شيءٍ من عزم الرجوع الى زوجها لانها لم تكن قط طالقاً

فاوجس البرنس خوف اختلالٍ في قوى البرنس العقلية لكنهُ كتم اهتمامهُ بهذا الامر وقال لها بكل بساطةٍ : —

— لستُ افهم مرادكِ . أراكِ تتكلمين بالالغاز . — وتودُّ لها حلاًّ وتوضيحاً

— ممن اقف على ذلك ؟ — من السيدة ارلنفورد نفسها

— اودُّ الاجتماع بها فهل تظنينها ترضى مقابلتي ؟

— لا ريب في انها تسرُّ بمقابلتك كل السرور

— واين هي الآن ؟ هل لكِ ان تخبريني ؟ — هنا

— هنا ! اين ؟ — في هذه الغرفة امامك

— ناشدتك الله قولي لي ماذا ماذا تعنين بهذا ؟ — اعني اني انا هي

قالت هذا بكل بساطة واستوت على كرسي مقابلهُ . فمرّت عليهما بضع دقائق لم يفوها فيها ببنت شفة . ثم وثب البرنس على قدميهِ وصرخ : —

— فهمت ! الآن فهمت ! تزوجت هذا الرجل في روسيا اليس كذلك ؟ — بلى

— وهذا الخبيث تمكّن من الوصول الى خزانتك وسرق كتابي — نعم

— هل يعلم بهذا أحد ؟

— نعم فقد قابلت المرأة التي ادّعى زواجها (السن) اليوم بعد الظهر واطلعتها على كل شيء لانهُ حان الوقت

— وماذا أصابها عند اطلاعها على هذا الخبر ؟ — كما نتوقّع

— وعلى مَ عزمتِ الآن ؟

— انّ هذا آخر ما عندي لحمل ارلنفورد على الإقرار بإجنائهِ على غودارد وبعد إقرارهِ وتبرئة القائد المذكور لا يصعب عليّ الغاء زواجنا لأنّ طول المدة وعروض تلك الحوادث — هذا كلهُ يمكنني من التخلّص منهُ . اما انت فلستَ في حاجةٍ الى مساعدٍ على تنفيذ قوتك وادراك مرادك

— وبعد هذا ؟

فتورّدت البرنس واطرقت لا تبدي جواباً فقال : —

— لا بأس . فقد وعدتكِ اني اهتمّ بما فيهِ سعادتك مؤثرًا هذا على الاهتمام بسعادة نفسي . وسوف ازيدكِ على هذا الامر برهانًا بعد برهان ما شاء الله من الزمان . ففي الساعة التاسعة نجتمع في منزل المستر بركز ولا بدّ ان ارلنفورد يحاول بوقاحتهِ المعهودة الافلات من الاشراك التي نصبناها حولهُ . ولهذا ساذهب مسلّحًا بافعل الوسائط واقوى الوسائل التي لنا في البوليس السري

— وهل تستطيع ذلك ؟ — هنا في انكلترا ؟

— أنسيت ان جون فاين كان لنكدالحظ عضوًا في الفرقة الثالثة ؟

— أنسيتَ أني لن أنسى هذا مدى العمر ؟

— إعلمي إذًا انهُ مع عدم وجود معاهدة رسمية بين الحكومتين في تسليم المذنبين قيد

جلالة القيصر تستطيع القبض على عبيده اين كانوا . أتركي هذه المسألة لي

— بمزيد الرضى والسرور . فاذًا الى المساء — عن قريب

وفي الساعة الثامنة جلس المستر سنسناتوس بركز في مكتبته يكتب رسالةً . وبعد ما فرغ التي يراعهُ من يدهِ وقوَّم ظهرهُ على كرسيهِ ورفع الرسالة بيدهِ وقال في نفسهِ بعدما اكمل تلاوتها : —

— هذا يكفي

وهذا تعريب رسالتهِ :—

" سيدي المستر سافيل

" يسرُّني ان اخبرك ان اللورد ارلنفورد بأبى انتهاز فرصة الفرار من الجلسة المراد عقدها هذه الليلة في بيتي . وقد عزم ان يشهدها متحوِّطًا ومعدًّا لها امضى اسلحة الدفاع . فان لم تكن اسلحتك امضى من اسلحتهِ تمكنت ابنة عمي — الفتاة الغبية الطائشة — من الحصول على ما يورثها الخراب والدمار ويوردها موارد التلف والبوار . ولا يغرب عنك انهُ وغد وقد بلغ غاية النذالة والدناءة وافرغ جعبة احتيالهِ في اجتذابها اليهِ معللاً نفسهُ بالتعويل عليها وتحويل كل اذيةٍ اليها وقد عجلتُ في اطلاعك على هذا لكي تكون على بصيرةٍ وتأتي الجلسة متأهبًا للحمل عليهِ التأهب التام . وفي اقرب وقتٍ اتوقع زيارتهُ لي والسلام — صديقك المخلص

سنسناتوس بركز "

ثم طواها وعنونها باسم دك سافيل ودفعها الى الخادم وامرهُ بسرعة ايصالها الى صاحبها . ورجع ينتش اوراقهُ قائلاً : —

— اين وضعت كتاب تلك الفتاة الشقية ؟

ولما وجدهُ فتحهُ وقرأ فيهِ ما تعريبهُ : —

" ابن عمي العزيز

" لا انكر فضلك العميم . لكني بلغت من العمر ما يمكنني من العناية بنفسي . ولو رضيتك وصيًّا او قيِّمًا عليَّ لكنت اقترنت بك من سنين طويلة . ويسوءني القول اني لا اقدر ان ارثي لحالة السيدة التي كانت زوجة اللورد ارلنفورد . ويجب ان افضل العمل باشارة زوجها على اجابة التماسها والسلام "

— يالك من فتاةٍ شقيةٍ وجاهلةٍ غبيةٍ . ألا تعلمين اني لاجلك اتيتُ اوربا والاَّ كنتِ طوَّحتِ بنفسك الى دركات الشقاء والدمار . وأخذتِ بخداع هذا الكاذب الغيَّار . وانت

يا سيدي ارلنفورد اظنك بلغت غاية شوطك وقد أعددت لك شركاً لا تقوى على الافلات منهُ . واني لأشكرك بل اشكر العناية التي قدرت لي ان أشاهد بداءة ونهاية أغرب حادثة جرت في لندن

واذ ذاك دخل الخادم يعلن قدوم دك سافيل فقال بركز : —

— اهلاً بالمستر سافيل . أراك جئت قبل الوقت . اذاً لم يصلك كتابي

— لم أرَ منك كتاباً . وقد جئت لاقف على مجرى الاحوال . واحضرت صورة الإقرار المطلوب من ارلنفورد توقيعهُ وهو في نسختين هاتان هما

فاخذهما بركز ونظر فيهما نظرة المتفحص وقال : —

— هل يكتفي غودارد باقرار كهذا ؟

— نعم يكتفي ان يوقع ارلنفورد هذا الاقرار ويبرح انكلترا في الحال

— وهل تظنهُ يفعل هذا ؟ — لا اعلم

— وعدني انهُ يكون هنا الساعة التاسعة . ولما نصحتهُ بالعدول عن طلب التزوج بابنة عمي وانذرتهُ بسوء العاقبة أبى قبول النصح ولم يبالِ بالانذار . فعسى البارونة الدروف أن تحقق ما قالتهُ لي من جهة حصولها على قوة كافية لردعهِ . واقول لك ان محاولة كبح جماحهِ وترويضهِ ليست من الممتنات الهينات

— ويسرني جداً انك تخلصت منهُ على رغم تعلق ابنة عمك بهِ

— كيف ؟ وهل تخلصنا منهُ ؟

— نعم فانهُ بعد الحادثة التي طرأت لم يعد يهمهُ الاقتران بها

— اية حادثة تعني ؟

— حادثة حصولهِ على ثمانية آلاف جنيه في السنة ! فهل دار في خلدك ان شرَّ خلق الله يفوز بمحبة افضل النساء ؟ إن الى تروم الان الرجوع اليهِ وقد رضيت ان تعطيهُ ثمانية آلاف جنيه في السنة . وهي مستعدة لترك انكلترا معهُ

— متى تصل البارونة — الشيطانة الجميلة ؟

— في الوقت المطلوب . ان هذه المرأة سرٌّ غريب وقوتها فائقة الادراك . ولسوف تكون ليلتنا هذه ليلة شديدة الاهوال . وسأذهب الآن للتفتيش عن امرأتي وبعد ربع ساعة اعرد وبعد خروجهِ دخل الخادم واعلن قدوم اخي املي دشتون فاخذت بركز الحيرة والانقباض وقال : —

— كرتر؟ الماجور هومر كرتر؟ اني اعرف الاسم بعض المعرفة واما مسماهُ فلا اذكرهُ فقال لهُ الخادم : —

— يقول صاحب هذا الاسم انهُ يروم مقابلتك دقيقة واحدة

— قل لهُ يدخل

فدخل الماجور كرتر وقال : —

— اجتمعنا مرة في بيت اللورد ارلنفورد

— تذكرت الآن . فماذا تروم مني ؟

— ارسلني اللورد ارلنفورد لاخبرك بانهُ لا يستطيع الحضور في الوقت المعيَّن

— هكذا توقعت واظنهُ —

— عرض لهُ امرٌ لم يكن في الحسبان فجئتك معتذراً عنهُ لئلاَّ تفتاظ من تأخره في المجيء . ويشرفني أن انتهز هذه الفرصة للبحث قليلاً في الحوادث الجارية المكدرة . فان السيدة ارلنفورد عزمت ان تعرض على زوجها شيئاً وقد نصحت لهُ ان يقبلهُ

— وهل يهمني اقتراحها هذا ؟

— الى الغاية لانهُ اذا تمَّ عدل ارلنفورد عن الاقتران بابنة عمك

— سمعت شيئاً من هذا منذ بضع دقائق . واظنك لا تجهل ان حرية ارلنفورد الشخصية تتوقف على الاجتماع الذي ينعقد هذه الليلة

— حريتهُ ؟

— في هذا الاجتماع يطلب منهُ الاقرار باشتراكهِ في المكيدة التي سببت خراب القائد غودارد . فاذا ابى الاقرار واصرَّ على الانكار اثبتنا الجرم عليهِ وعلى كل شريك لهُ في جنايتهِ

— اني على رغم صداقتي لارلنفورد مضطرٌ الى الاعتراف بشدة كدري من اشتراكهِ في تلك الحادثة المحزنة

— هكذا توقعت . وهذا ما جرَّأني ان التمس منك شيئاً بهذا المعنى . فاذا اردنا الاعتماد على شهادتك تعجيلاً لقضاء الامر فكم تطلب عليها ؟

— خمسماية جنيه

— سأحصل على هذا المبلغ بعد نهاية الاجتماع . واذا شئت فاذهب الآن وارجع بعد نصف ساعة

— سمعاً وطاعة

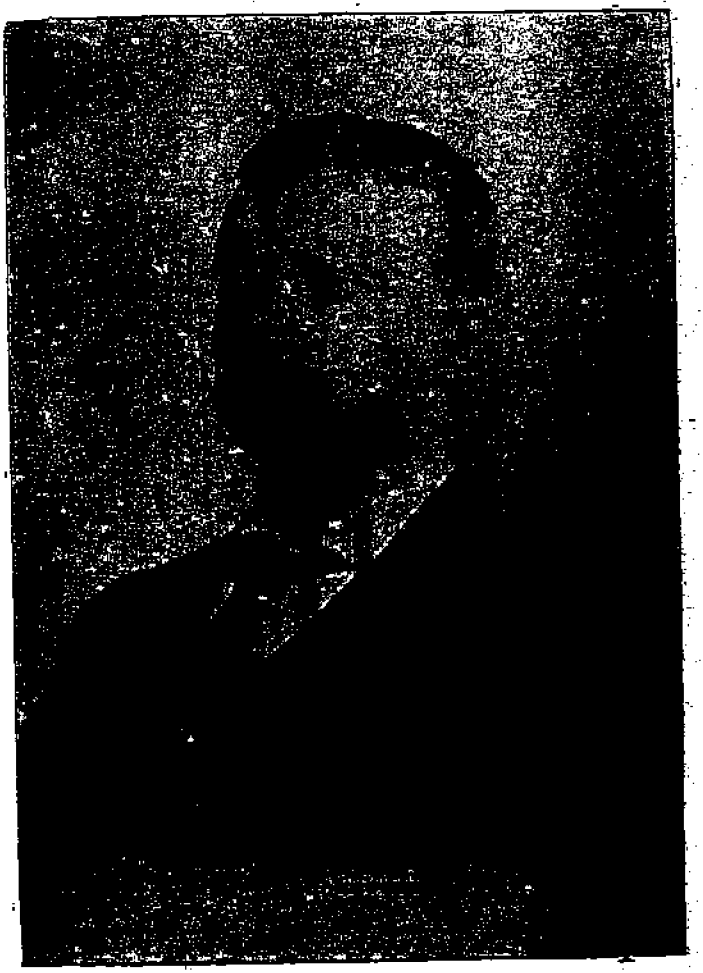

روزفلت رئيس الولايات المتحدة